

جوانب من المقاومة الثقافية ضد الرومنة في الجزائر القديمة

أ. خليفة عبد الرحمان

جامعة سطيف 2.

الملخص:

تعددت أشكال المقاومة في الجزائر لمختلف أشكال الاحتلال و الهيمنة عبر العصور، و قد كانت المقاومة الثقافية أحد أقدم تلك المظاهر التي استمرت عبر الفترات التاريخية المتعاقبة، و إن كان من الشائع أن مقاومة الاحتلال الروماني و سياسة الرومنة اتخذت شكل ثورات مسلحة فإن المقاومة الثقافية شكلت الحصن الذي لجأ إليه المجتمع الجزائري للحفاظ على هويته، و نسعى من خلال هذه المداخلة إلى معالجة مفهوم الرومنة و السجال القديم المتجدد حولها، مع التركيز على المقاومة في الحقل الثقافي، باستعراض و تحليل جوانب من تلك المقاومة كاللغة و الأسماء و الحقل الديني.

Abstract:

There has been a variety of forms of resistance in Algeria to various forms of occupation and hegemony through the ages. Cultural resistance was one of the oldest manifestations that continued through successive historical periods. If it is common that the resistance of the Roman occupation and the policy of Romanization took the form of armed revolutions, Which sought refuge in the Algerian society to preserve its identity, and we seek through this intervention to address the concept of Romanization and the old debate revolves around, focusing on resistance in the field of culture, reviewing and analyzing aspects of the resistance such as language and names and the field of religion.

مقدمة

لقد اتخذت المقاومة في المغرب القديم عموما و الجزائر تحديدا أشكالاً متعددة، فبرزت في صور مختلفة باختلاف الظروف والمعطيات، متخذة طابع المواجهة العسكرية ضد روما، أو تشكلت في صورة الرفض و المواجهة الثقافية للوجود و السياسة الرومانية، و انطلاقا من أن المقاومة رد على فعل الرومنة من جهة كما أن مقاربتها من طرف الدارسين تختلف باختلاف الفترات و الظروف التاريخية، سأنتقل في البداية إلى تطور مسار الكتابة حول الرومنة و المقاومة و المفاهيم التي ارتبطت بهما، ثم محاولة استجلاء أشكال المقاومة في مجالات أساسية للحقل الثقافي هي الأسماء و اللغة و الدين.

الرومنة : المفهوم و الدراسات:

1 - المقاربات الأولى للرومنة:

ظهر مصطلح " رومنة " لأول مرة في أواخر القرن 19 و مطلع القرن ال20 ، مع كل من تيودور مومسن (Theodore Mommsen) في 1863 (Mommsen, 1872:16)، و فرانسيس هافرفيلد (Francis Haverfield) (Haverfield, 1915: 91).

و فيما يخص المقاطعات الإفريقية تحديدا كان براوتون (Broughton, T.R.S.Boughton) (1929:الأول الذي استعمل المصطلح منذ 1929 ، دون أن يفصل فيه، و بصفة عامة عرض هؤلاء الكتاب أسس المفهوم بتحديدده أولا بأنه كان في إطار مسار processus فرضت بواسطته روما لغتها و ثقافتها في الأراضي التي احتلتها، أو كمسار لاستغلال المقاطعات كما يرى براوتون، و قد عرفت التفسيرات المختلفة للرومنة تطورات من عشرية إلى أخرى ، و الأقرب منها زمنيا تعريف هرفي إنجلبرت (Hervé Inglebert) في 2005 ، فيرى هذا الأخير أن: " يتعلق الأمر بالتحول لمجتمع ما بسبب إجبارات مفروضة و الفرص التي تقدم من طرف روما...توافق لعناصر رومانية في السياقات الثقافية الخاصة و حسب مصالح محددة" ، فمنذ البداية

كان الغزو هو المسار الذي أصبحت روما به سيدة لمقاطعة ما، وفي أغلب الأحيان بواسطة قوة السلاح سواء احتلتها عسكرياً أم لا (Inglebert, 2005:428) وباستعادة تعبير مارسيل بن عبو Marcel Benabou يتعلق الأمر بتحويل للملكية ،دون تحقيق تغيير عميق، ثم يأتي الاستيطان في بعض الحالات عندما تعتبر فئات من الأراضي المحتلة مواطنين رومانيين. ، فالأمر يتعلق أولاً بمسار ليس سياسياً فقط، ولكن أيضاً ثقافي، وحول هذا البعد الثقافي تتحدد الرومنة، غير أن هذا المفهوم غامض وواسع مما جعل الدارسين يعطونه تفسيرات كثيرة، لذلك سنستعرض بشكل موجز التأويلات التي أعطتها الدراسات التاريخية له، من أجل محاصرته ومعرفة حدوده و أيضاً ماذا يستلزم (Benabou, 1976: 48).

2 - مفاهيم مرتبطة بالرومنة:

قبل التصدي لسؤال الرومنة يجب تحديد مدلول ثلاث مفاهيم ذات طابع عام هي: تمثل assimilation، ثقافة أو ثقاف acculturation الذي عرّفه الأنثروبولوجيون الأنجلوساكسون منذ 1963 الثقافة بأنه: " مجموع الظواهر الناتجة عن اتصال مباشر ومستمر بين مجموعات الأفراد من ثقافات مختلفة، مع تحولات لاحقة في نمط الثقافة أصلية من إحدى أو كلتا الثقافتين" . (Camileri, 1989: 24)، يضاف إليهما مفهوم ثالث هو créolisation لأن الكثير من المقاربات للرومنة تتناول بشكل أو بآخر هذه المفاهيم الكبرى. فحسب ميلتون غوردون M. Gordon يشير المفهوم الأولان (التمثل و الثقافة) بصفة عامة لنفس الفكرة، مع فرق هو أن علماء الاجتماع يفضلون استعمال مفهوم " تمثل " في حين يستعمل الأنثروبولوجيون مفهوم " ثقافة"، مع وجود تشابهات بين المصطلحين (Gordon, 1964: 61). و بتطبيق هذه المفاهيم على موضوعنا الذي هو رومنة إفريقيا الشمالية يبحث هذا المسعى

عن تفسير ظاهرة تبدو كأنها اندماج كامل للأهالي في الهوية الرومانية على حساب هويتهم الخاصة.

و فيما يتعلق بالثقاف فهو أول شكل للتمثّل كما يطوّره م. غوردون حيث يتضمّن تحولات من وجهة نظر ثقافية، فهو تقبّل مجموعة إثنية بفعل اتصال مباشر أو ممتد للشكل الثقافي للمجتمع المسيطر، أو المجموعة الأغلبية، و في النهاية يكون الثقاف هو المسار الذي يفتح الطرق نحو أشكال جديدة من التمثّل الهيكلي، الهياتي، أو المظهري أو غيرها. (Alba, 2000 : 840 - 852)

لقد حاولت منذ فترة قريبة الأجيال الجديدة من الكتاب الأقل تأثرا بالأفكار الاستعمارية من سابقهم أن يشرحوا تلك الظواهر انطلاقا من مفاهيم جديدة، منها Créolisation الذي يخص في الأصل و بصفة أساسية التحولات اللسانية التي عرفتها المستعمرات الأوروبية القديمة في الكاريبي، ثم وسعه بعض الكتاب فطبقوه على وضعيات أخرى متجاوزين المسألة اللغوية البسيطة، ووفق هذا المفهوم تفسّر الظاهرة على أنها مسار للتبادلات المتقاطعة لعناصر ثقافية بين ثقافتين، تعيش في مجال محدد، بتوافق الواحدة مع الأخرى (Hall, 2003:) ، فالسكان الليبيون لإفريقيا الشمالية كمثال اختاروا بعضا من العناصر الثقافية من ثقافة أخرى كالرومانية بإعطائها مدلولاً مختلفاً عن ذلك الذي تلحقه بها الثقافة الأصلية، مدمجين أيضا لكلتا الثقافتين في واحدة جديدة مختلفة عن الثقافتين الأصليتين، و المثال الجيد عن ذلك هو اقتران الإله الروماني ساتورن مع الإله البونيقي بعل حمون حيث أن ساتورن الإفريقي لم يعد بعل البوني أو ساتورن الروماني في صورته الأصلية (Le Glay, 1966 : 497)

3 - الرومنة : المقاربات الأولى.

النوع الأول من المقاربات هو الذي يسميه البعض بالانتشاري Diffusionniste فحسب هذا النموذج تكون الرومنة محصلة لسياسة مقصودة للسلطة الرومانية الساعية إلى فرض قيمها من أجل إدماج وتمدين الأهالي، و من أنصار هذا المفهوم نجد الألماني تيودور مومسن الذي يرى بأن الرومنة تدخل بنشر نموذج المدينة، المحدد بالعمران و القانون، و من أنصاره أيضا البريطاني فرنسيس هافرفيلد الذي برأيه أن الرومنة تتم بنشر المواطنة الرومانية و تبني النخب المحلية للغة و الثقافة و المؤسسات الرومانية أيضا، فحسب هذا النموذج الانتشاري تتم الرومنة عبر مسار إدماج. (Inglebert, 2005 : 442)

إنه من الضروري وضع هذه المقاربات للرومنة في السياق التاريخي الذي ظهرت فيه، فالأول مومسن ألماني من نهاية القرن 19 و الثاني بريطاني من مطلع القرن 20 ، جاءت تفسيراتهما لتاريخ روما متأثرة بالإيديولوجية الكولونيالية لتلك المرحلة ، فعندما كتب مومسن 1863 كانت ألمانيا تثبت نفسها كقوة في أوروبا بشكل متزايد، و بحثت هي أيضا أن تنطلق في مشروع استعماري على غرار فرنسا و بريطانيا، ثم تزايد شعورها بالتفوق بعد انتصار بروسيا على فرنسا في حرب 1870 – 1871 حتى الحرب العالمية الأولى، أما هافرفيلد فقد كتب في الفترة التي كانت فيها بريطانيا خارجة لتوها من الحقبة الفيكتورية ، وهي الفترة التي كانت فيها في أوج قوتها، حيث كانت لها مستعمرات في أمريكا وإفريقيا، و في الهند وآسيا وأوقيانوسيا (Hingley , 2011: 33 - 35)

في بداية القرن 20 تعتبر مقاربات بعض الكتاب للرومنة استثناء، و كمثال على ذلك توماس براوتون Thomas R. S. broughton في كتابه : رومنة إفريقيا البروقنصلية . The Romanization of Africa Proconsularis (1929) الذي رأى أنه لم تكن هناك

رومنة في إفريقيا ، لكن بالأحرى كانت لروما إرادة للاستغلال ، بدورها ليست نظرية براوتون عن الرومنة معزولة عن سياق الفترة التي كتب فيها ، فبراوتون مؤرخ كندي كتب من وجهة نظر المستعمر ، رغم أنه من أصول بريطانية ، وهو ما لا يستبعد أن يكون انتقل إلى تفسيره لاحتلال روما و سياساتها في شمال إفريقيا ، و لتوضيح الصلة تجدر الإشارة هنا أيضا إلى أنه بعد الحصار البحري لنابليون ضد بريطانيا في مطلع القرن 19 التفتت بريطانيا نحو المستعمرات من أجل التزود بالموارد خاصة الخشب ، فتحولت صناعة المستعمرات البريطانية في أمريكا الشمالية حينها لتوفير الخشب و السفن الضرورية للبحرية البريطانية ، و قد كتب براوتون في 1929 أي عامين بعد النظام الأساسي لواسمنستر (Wesminster Statut) الذي أعطى كندا حكمها الذاتي لفترة يكون سكانها فيها قادرين على تسيير شؤونهم ، لذلك ليس من الغريب أن يروا أنفسهم مستعمرين و مستغلين من طرف بريطانيا . (Matingly, 2011: 58 - 60)

أما الكتابات الفرنسية التي تناولت بشكل أو بآخر موضوع الرومنة في شمال إفريقيا فهي كثيرة ، منها كتابات . ميسناج (J.). Mesnage (J.), La romanisation de l'Afrique: Tunisie, Algerie, Maroc. Paris, 1913. الذي ركز فيه على وضعية المدن و تواجده الآثار الرومانية ، و ج . توتان : Toutain (J.), Les cités romaines de la Tunisie : Essai sur la colonisation de l'Afrique du nord, B. E. F. R. A., Fasc 72, Paris, 1896 ثم مقال فلوم (G. H.), La romanisation de l'Afrique, L'Afrique Romaine, étude épigraphique, Paris, 1978, PP.375 – 392. و غيرها من الكتابات التي عموما تناولت ظاهرة الرومنة على هامش تناولها لمواضيع أخرى من الفترة الرومانية بكل شمال إفريقيا أو إحدى مقاطعاتها ، مثلما فعل مارسيل لوغلي عند تعرضه للجانب الديني ، أو كانيا عند دراسته للجيش الروماني بإفريقيا ، أو لويس ليشي عند تناوله لموضوع الأسرة التبسية في القرن الثاني الميلادي ، و غيرها ، و هي في مجموعها و إن

بدرجات متفاوتة تؤكد علنا أو تلميحاً على الدور الحضاري للاحتلال الروماني بالمنطقة وتستبعد أشكال الرفض والمقاومة من السكان الأصليين.

أ - رومنة ومقاومة:

افتتح السجل مجدداً في سبعينيات القرن العشرين حول الرومنة متمفصلاً هذه المرة حول فكرة المقاومة، و سعى أيضاً هجوماً معاكساً من المحليين، قاده مارسيل بن عبو الذي نشر في 1976 كتابه: المقاومة الإفريقية للرومنة. *La résistance Africaine à la romanisation* الذي سار فيه بالفكرة قدماً باقتراحه أن مفهوم الرومنة يجب أن يكون مرتبطاً بالمقاومة، كما أن الجديد في مقارنة بن عبو للموضوع هو تطبيقها على حالة إفريقيا، وبشكل أكثر تحديداً فإن هذا التناول يفترض أنه وراء كل واجهة رومانية فرضت نظامها في الحياة استمرت أيضاً عادة أهلية (أصلية) قوية استمرت في البحث عن استعادة مكانتها.

لقد جاء كتاب بن عبو أيضاً في سياق تميّز باسترجاع البلدان المغاربية لسيادتها وتنظمت كدول، وقد سعى الكتاب المغاربة إلى كتابة تاريخ محرر و تبيان بأن حاضرمقاومة ما هو إلا انعكاس للماضي ضد الرومان والعكس ضد الاستعمار الأوربي الحديث، خاصة منها ثورة الجزائر، فهي إذن بديل جديد يتمحور حول المحليين، وبتحديد أكثر بالطبقات الدنيا من المجتمع، في معارضة للمقاربات والمفاهيم القديمة المتمحورة حول النخبة والسلطة الرومانية (Matingly, 2011: 60)، ومن المهم الإشارة هنا إلى أن المقاربة التي طرحها بن عبو أثارت نقاشاً واسعاً ما زال قائماً حتى اليوم في الكتابات التاريخية بلغات مختلفة و سنكتفي هنا بأهمها حيث بدأ ذلك السجل في فرنسا مجلة حوليات . اقتصادات، مجتمعات وحضارات في عددها ال33، لسنة 1978.

Annales. Economies. Sociétés , Civilisations, Année, 1978 حيث لم تلق فكرة المقاومة التي اقترحها بن عبو الإجماع ، ولم يتأخر انتقادها، فنجد من أول المعارضين لها أيفان تيبار Yvan Thebert في مقال (Romanisation et déromanisation de l'Afrique : histoire décolonisée ou histoire inversée, PP. 64 – 82.) الذي كان اعترضه الأساسي هو خطر استعمال الرومنة كمفهوم موحد، أي بمحاولة تفسير معنى الرومنة بواسطة المقاومة فهذا التوجه حسب إيفان تيبار يؤدي إلى مشكل اعتبار إفريقيا من وجهة نظر ثنائية، رومان من جهة و أفارقة من جهة أخرى، و كبديل اقترح هذا الأخير فكرة الانتشار للحضارة الرومانية، مع تأكيده على الصلات التي تمتد بعيدا في الزمن بين إفريقيا و العالم الإغريقي و العالم المتوسطي، و ما الرومنة حسبه إلا صدمة للحضارات أو ظاهرة تالية للغزو، و لذلك تسجل ضمن استمرارية العلاقات بين إفريقيا و العالم المتوسطي، كما رد بن عبو بمقال في نفس العدد بعنوان (Les Romains ont – ils conquis l'Afrique ?) و من جانبه فيليب لوفو بمقال (Leveau (Ph.), La situation coloniale de l'Afrique romaine) يضاف إليهما لاحقا كتابات عديدة نكتفي هنا بذكر مقال (Leroux Patrick , la romanisation en question ?) أيضا مقال مريم سباعي الذي جاء بعده (Meriem Sebai, la romanisation en Afrique , retour sur un débat : la résistance africaine : une approche libératrice . (Sebai, 2005: 39 - 56)

ب - تعريف الرومنة:

أعطى الدارسون تعريفات عديدة لمفهوم الرومنة ، فبالنسبة لعبد الله العروي كانت الثورات فشلا دائما للفترة الرومانية في إفريقيا ، و قد صارت تلك الثورات في تصاعد مستمر طيلة المرحلة الإمبراطورية ، و أن الرومنة كانت بالأساس ظاهرة سطحية (Laroui, 1977: 56)، و هي عند مارسيل بن عبو لا تعني فقط نقل حكم و

رجال، إنما نقل حضارة، و هي عبارة عن إعادة تشكيل تتم على كل المستويات (Benabou, 1976:30)، و منها " أنه تحويل الأنظمة الإدارية التي وجدوا عليها بلاد المغرب إلى أنظمة رومانية بحتة" (شنيقي، 1982 : 75)، أما مونيك دوندون بايير Monique Dondin-Payre فأعطت تعريفا غطى جوانب أساسية من زوايا الظاهرة : " تعني الرومنة نقل الحضارة الرومانية إلى المقاطعات المستولى عليها، بحيث تصبح الحياة الدينية تتمثل في عبادة الآلهة الرومانية، أو في إدماجها بالآلهة المحلية، مع الحرص الشديد على تقديس عبادة الإمبراطور الذي كان بمثابة إله. و من الناحية القانونية و السياسية تظهر نسبة قابلية الأهالي للنظم و القوانين الرومانية، و تتأكد من خلال مساهمتهم في إدارة شؤون البلديات، و من الناحية الاقتصادية تدل كثافة المبادلات التجارية مع شبه جزيرة إيطاليا و تطور الوسائل الزراعية و الصناعية، ووسائل البناء على الرغبة في تدعيم الرومنة. كذلك تغيير الهياكل الاجتماعية، و نشر و توسيع الحياة في البلدية التي يصاحبها توسع في البناء، يساعد على نشر الثقافة اللاتينية " (Dondin- payre, 1981: 93 - 94)، و من جانبه يعرفها باتريك ليروكس Le roux Patrick بأنها " تصف المسار الذي به تنخرط مجموعة في مرحلة جديدة خلّاقة من تاريخها، مطوّرة خطابا جديدا محددة علاقات السلطة، الصلات الاجتماعية، النشاطات الاقتصادية، الهويات الثقافية الجماعية و الفردية. " (Leroux, 2004: 311)

المقاومة الثقافية: السياق و المفهوم:

إلى جانب المقاومة العسكرية التي ضايقّت الوجود الروماني كثيرا، نذكر مقاومة يوغرطة 111 ق. م – 105 ق.م، أرابيون 40 ق. م، انتفاضة قبائل الجيتول و الموزولامي 22 – 21 ق. م، ثورة تاكفاريناس 17 – 24 م، مقاومة فيرموس بين 372 – 375 م، فقد تطورت ضمن المجتمع الروماني - الإفريقي مقاومة ثقافية أدت

بشكل جلي إلى ميلاد " حضارة " من نموذج خاص هو " الحضارة الرومانية-الإفريقية " ويتأسس هذا المصطلح على أصالة و تميّز الحضارة الرومانية بإفريقيا و قد تم رسم الخطوط العريضة لتلك الحضارة من طرف ج ش. بيكار Picard Gilbert Charles في كتابه la civilisation de l'Afrique Romaine منذ 1959 و الذي قدّم فيه نظرة متحيزة خلاصتها تناغم الاتصال الروماني بالميراث الإفريقي ، و هي النظرة التي تبعد أي فكرة عن المقاومة فهي تقوم على تقبّل الأفارقة للأشكال الثقافية التي جاءت بها الرومنة ، إلا أن الحقيقة بقي في كل مقاطعة من المقاطعات الرومانية لإفريقيا ، جزء من السكان تجاهلوا بشكل كبير أو قليل السيطرة الرومانية ، و أحيانا لم يمسه تأثيرها ، فما هي أشكال هذا الرفض أو التجاهل؟ هذا ما نحاول تبينه ، لكن مع الأخذ بعين الاعتبار لآراء كل من يعطون أهمية بالغة لـ " الثبات البربري " permanence la Berbère أو الخصوصية البربرية التي يجب تجاهلها لأنها أخذت عند البعض بعدا سلبيا أي الجمود المكوّن من سلسلة من الرفض الدائم (Benabou, 1976: 255 - 256) جاء تعريف م. بن عبو أكثر إحاطة عندما يقول: " نعتبر كشكل من المقاومة كل ما يسمح لشخص محلي عدم الخضوع بشكل قليل أو كثير لقالب الرومنة و بالحفاظ كليا أو جزئيا على ميراثه الثقافي، على شرط أن نميّز في كل الحالات عندما يكون ممكننا ما ينشأ من وفاء واع لميراث معيّن، و ذلك الذي ما هو إلا نتيجة لثغرات الرومنة، و هذا التمييز غالبا ما يكون مستحيلا بسبب الصلة المعقدة التي تجمع هذين البعدين من نفس الحقيقة " (Benabou, 1976: 258) .

أ – في مجال الأسماء:

سعت روما إل استقطاب عناصر أهلية ذات ولاء لها، عن طريق دمجهم في المجتمع الروماني و أداتها في ذلك كانت المواطنة التي تعطي الحاصل عليها من السكان المحليين حقوقا عديدة منها : اتخاذ الاسم الثلاثي: المنصوص عليه في قانون

" الحالة المدنية الرومانية" للاندماج نهائيا في الشعب الروماني، بل قد يصل التحول إلى حد فرض تغيير الملابس التي يعتبرها القانون الروماني أجنبية عن الزي الروماني، حيث أن المتجنّس أي الحاصل على حق المدينة " المواطن الرومانية" ظل إلى القرن الثاني الميلادي لا يمكنه الخروج إلى الحياة العامة في غير اللباس الروماني، وعلى الخصوص التوجة Toge أو اكتساب المشروعية الزوجية، إلى جانب اكتساب كيان وسط المواطنين الرومان من خلال الاسم الثلاثي الذي هو عبارة عن درجة رفيعة و كذلك حق التملك (عقون، 2008 : 273 - 274).

إن مسألة الأسماء في غاية من الأهمية، فقد حمل الأهالي الذين تحصلوا على المواطنة في أغلب الحالات أسماء و ألقاب العائلات الرومانية الأرستقراطية التي اتخذوا مشاهيرها حماة لهم، و من هنا يصعب تمييز الروماني بالأصل عن الروماني بحق المدينة، و نادرا ما نجد فردا احتفظ بلقبه الأصلي، و من الخطأ اعتبار كل الأسماء التي خلدتها النقوش هي أسماء الرومان بالأصل، لكن لا نملك أدلة إثبات كافية، مع أن ج توتان Toutain Jules و P- Flaum حاولا دراسة هذه الأسماء و استخلاص بعض النتائج من التي تكون قد ترجمت أي التي تحمل معاني أسماء إفريقية نوميدية و كانت متداولة في إفريقيا قبل الرومان (شارن، 2007 : 104)، و في هذا الصدد تعتبر مدونة النقوش اللاتينية في جزئها الثامن مصدرا أساسيا لدراسة أسماء الأعلام خاصة أن النقوش الجنائزية تشكل أغلبيتها، و رغم المحاذير العديدة و أشكال النقص التي تلازمها (Dondin- payre, 1981:95 - 98) : عقون، 2008 : 274).

و قد اختلفت الاستفادة من الجنسية الرومانية من عصر الجمهورية إلى عصر الإمبراطورية، ففي العصر الأول كانت المجالس (comitia) الممثلة في القادة وحدها مؤهلة لمنح حق المواطنة، و عادة ما يقلّد الأهالي المترومين الرومان في تبنيهم قاعدة

الاسم الثلاثي المتكون من الاسم (Praenomen) و اللقب (Nomen) و الكنية (Cognomen) وقد جرت العادة في العصر الإمبراطوري أن يحمل الفرد اسم و لقب الإمبراطور مثل لقب س. أو.ك. إوليوس (Iulius . G أو C) نسبة إلى يوليوس قيصر أو أغسطس ، و يتبين من إحصاء و دراسة النقوش التي وصلتنا أن الأسماء تنقسم إلى خمس مجموعات تنسب إلى إمبراطور أو أسرة و هي تتوزع كالتالي:

: ينسب إلى يوليوس قيصر أو الإمبراطور أغسطس (46 ق. م / 14 م) G. أو C.

Iulius

: ينسب إلى الإمبراطور كلوديوس (41 / 54 م) Ti. Claudius

: ينسب إلى الإمبراطور فسباسيانوس و تيتوس و دومسيان (69 / 96 م) T. Falavius

: ينسب إلى الإمبراطور تراجانوس (96 / 117 م) M. Ulpus

. (Dondin - payre, 1981: 98) : ينسب إلى الإمبراطور هادريانوس (117 / 138 م

P. Aelius (

و قد بلغ عدد النقوش التي وصلتنا حتى الآن من مجموع بلاد المغرب القديم 1656 تحمل أسماء ثلاثية، كما أن نسبة 65 % منها يعود إلى عهدي الإمبراطورين يوليوس قيصر و أغسطس ، إضافة إلى ذلك فإن أكبر عدد من المرومنين يتمركزون في الشمال الشرقي لمنطقة المغرب القديم أين تصل نسبتهم 90 % و تقل بشدة في ولايتي طرابلس و موريطانيا الطنجية و في المناطق الجبلية و الصحراوية (شارن 2007 : 105 - 106).

أما في الجزائر خلال الفترة الرومانية فإنه باعتبار كل من مقاطعة نوميديا و موريطانيا السطايفية و جزء هاما من موريطانيا القيصرية تنتهي إليها فإن توزيع المرومنين خلال الفترة الممتدة بين أواخر حكم يوليوس قيصر (46 . م) و نهاية حكم الإمبراطور هادريانوس (138 م) تتوزع وفق الجدول الآتي :

- جدول توزيع المرومنين (في الجزائر القديمة) بين 46 م - 138 م :. 1981: payre -

(Dondin 113)

المقاطعة	C. Julius		Ti.Claudius		T.Flavius		M.Ulpus		P.Aelius		العدد الإجمالي		عدد النقوش
	المجموع	%	المجموع	%	المجموع	%	المجموع	%	المجموع	%	المجموع	%	
موريطانيا القيصرية	67	56	23	20	7	6	9	7	14	11	120	8	118
موريطانيا السطايفية	53	56	2	2	8	8	17	18	16	16	96	7	89
نوميديا	618	71	48	6	97	11	14	2	82	10	859	50	729
المجموع	728	183	73	28	112	25	40	27	112	37	1075	65	936

كانت العناصر الاجتماعية التي حصلت على المواطنة الرومانية تضم المجندين الأفارقة والأجانب الذين كانت أعدادهم مرتفعة في المدن العسكرية الرومانية مثل مسعد و لمبار ،ثم يليهم التجار بمختلف جنسياتهم ،و في المرتبة الثالثة يأتي معتقو الإمبراطور .

يتبين مما سبق قلة الإقبال على الرومنة ،والذين ترمنوا منهم لم يكن أمامهم خيار آخر غير الخضوع وتبني مظاهر حياة غريبة عنهم، أما الذين نفروا من مظاهر الحياة الرومانية فقد رحلوا عن أراضيهم مفضلين الصحراء و الأراضي الجرداء و الحياة الصعبة و الحرمان عن فقد هويتهم و حريتهم .
(شارن ، 2007 : 106 - 110) .

ب - في مجال اللغة:

تميز الوضع اللغوي بالجزائر في الفترة الرومانية بتواجد مشترك للغات رسمية من لاتينية و إغريقية مع لغات أهلية كثيرة، استعمل الأهالي اللاتينية أو الإغريقية فيما كانوا في حاجة إليه، و قد ساد تنوع لغوي تجاوزت بموجبه بإفريقيا لغات عديدة منها اللاتينية و الإغريقية البونية و الليبية و حتى العبرية. (Benabou, 1976: 471 - 472)

لم تكن اللغة اللاتينية غريبة عن الشعب الإفريقي، وقد عرفها الساسة ضمن العلاقات التي تربطهم بروما في مجالات مختلفة في السلم و الحرب، ولكن خلال الاحتلال كان الوضع اللغوي أعمق بكثير، فقد جاء الرومان بنظمهم الإدارية و الاقتصادية و بقوانينهم التي تجعل من بين شروط الحصول على المواطنة تمثّل الثقافة الرومانية، و اللغة مفتاح تلك الثقافة، و بعد مرور أكثر من قرن ستظهر نتائج الرومنة اللغوية تدريجيا، و كانت المدرسة أهم أداة لرومنة المجتمع، حيث كانت مناهج التعليم فيها تركز على القراءة و الكتابة و الحساب ثم النحو، و كان على التلاميذ أن يحفظوا بعض أمهات الكتب في التعليم الأولي، و في المراحل اللاحقة تمتد الدراسة إلى الفنون و العلوم الأخرى كالشعر و الموسيقى و الفلسفة و الرياضيات، و طبعي أن يكون المجتمع الحضري على الخصوص أول المتأثرين الرومنة اللغوية، و منذئذ سنرى ظاهرة سوسيوثقافية في الشمال الإفريقي هي مدن ناطقة بلغة الغالب و أرياف محافظة على لغة البلاد (عقون، 2008 : 271 - 273) . و قد ساهمت إلى جانب الجيش و المدارس و الملاعب و الأسواق و المسارح و غيرها من الهيئات الرومانية ساهمت الإدارة في نشر اللغة اللاتينية في مدن الولايات بتطبيقها النصوص القانونية اللاتينية مما اضطر الأهالي إلى تعلم هذه اللغة لفهم تلك القوانين و للتخاطب بها (شارن، 2007 : 263) .

جدير بالذكر أيضا أن روما لم ترض لأسباب سياسية بأن تعوّض اللغة اللاتينية بلغة أخرى حيث قال القديس أوغسطين: "إن الدولة الرومانية التي تعرف كيف تحكم الشعوب لم تفرض على المغلوبة منها سيطرتها السياسية فحسب بل لغتها أيضا" (جوليان، 1983: 248) ، وبالمقابل فقد رفضت روما الاعتراف باللغة البونيقية في الدوائر الرسمية فحرمتها من نفس الحياة ، كما شجعت الأهالي على

تعلم اللاتينية و الاعتراف بثقافة روما، و جعلت من ذلك معيارا يؤهل صاحبه للحصول على امتيازات مدنية و منها درجة المواطنة الرومانية. (شنيقي، 2003 : 158)
و إذا كانت اللغات الشفهية أو المكتوبة في إفريقيا الرومانية تشهد على درجة مقاومة الثقافات المحلية من جهة و على حدود (درجة) توغل الثقافات الوافدة فهي تظهر بعدا مفردا للخصوصية المحلية ، التي تتجلى مقاومتها في هذا المجال بضيق انتشار اللغة اللاتينية حيث أدى عدم سعي الإدارة الرومانية إلى تعميم التعليم على جميع سكان الولايات، إلى أن البعض منهم تعلم اللغة اللاتينية و أحسنها و ظل أغلبهم إما لا يجيدها أو يجهلها تماما ، ولا يعرف إلا اللغة الليبية أو البونيقية.
(شارن، 2007 : 263) .

و من أشكال صمود اللغة البونيقية أنه رغم غزو اللغة اللاتينية للمدن و الحواضر المغاربية فقد ظل التخاطب بالبونيقية متواصلا ببعض الأرياف القريبة من المدن ذات العراقة البونيقية إلى القرن الخامس الميلادي و هو ما شهد به القديس أوغسطين الذي ذكر بأنه كان يواجه صعوبات في إفهام جمهور الريف ما يريده باللغة اللاتينية، و أنه كان مضطرا لاستصحاب الترجمة الذين يجيدون اللغة البونيقية، و قد ارتاب كورتوا و غيره من المؤرخين فيما ورد عن أوغسطين معتقدا أن البونيقية قد زال أثرها قبل عهد أوغسطين بكثير و أن " الرومنة" قد عمت الحواضر النوميديّة و الأرياف المحيطة بها، و أنه ربما اختلط الأمر على القديس أوغسطين فاعتقد الليبية هي البونيقية، و الواقع أن الاكتشافات الأثرية الجديدة أكدت صحة رواية أوغسطين جاعلة فرضية كورتوا مجرد شكوك باطلة، و قد قاومت اللغة البونيقية الغزو اللاتيني في المدن بصورة متفاوتة الفعالية، حيث ضعفت في مدينة كرتا أمام تعاظم شأن المجتمع اللاتيني الذي انغرس بها منذ

سقوط مملكة نوميديا عام 46 ق. م ، بينما صمدت كلالما (قالمة) و مكثّر و دوقا و غيرها مدة أطول في وجه المد اللاتيني (شنيقي ، 2003 : 158).

ج - في المجال الديني :

عرف سكان الشمال الإفريقي تجربة دينية ومعتقدات وطقوس منذ عصور ما قبل التاريخ، كما كان لهم تفاعل في هذا المجال مع الشعوب الأخرى التي كان له معها تواصل في الظروف المختلفة ،من مصريين و إغريق و زنوج و فينيقيين و غيرهم، و قد عبّر المغاربة القدماء عن اهتماماتهم الدينية بأشكال مختلفة أغلهم أثرية و أقلها مكتوبة، و قد طغت فكرة الخصوبة بتجلياتها المختلفة عل تلك الاهتمامات الدينية، و بفرض الاحتلال الروماني على المغرب القديم و منه الجزائر، كان لسكانها تجربتهم الدينية الخاصة بهم ،و باحتكاكهم مع الرومان قامت أشكال من التفاعل الديني بينهما فكان تمسكهم بذاتيتهم الدينية كما أثروا و تأثروا بديانة الوافدين المحتلين من الرومان.

إلا أن ما يصعب مهمة الباحث أن الديانات الوضعية كانت تتميز بالتسامح و قبول الآخر مما يصعب عملية الفصل، و يكفي تتبع الدخول المتوالي للعبادات الرومانية و قياس مدى نجاحها أو فشلها عند السكان المحليين، و من جهة مقابلة أن نقيم الدليل بتحليل درجة التراجع أو الجمود للآلهة المحلية، و هو أمر صعب لا تسعفنا الوثائق لتحقيقه، و إذا كان بإمكاننا تتبع تطور السيطرة الرومانية فإنه ليس ممكننا الولوج إلى روح شعب (لم يعد موجودا) لتقييم عمق شعوره الديني تجاه هذا الإله أو ذاك ،أو للتمييز بين الممارسات الدينية الموروثة و المكتسبة، فلا نملك إلا أدوات قليلة منها الأثرية أما الكتابات فأكثرها مسيحية، و هو ما يستدعي تطبيق مناهج متكاملة و دراسات تفصيلية مع الاستعانة بالمصادر المتنوعة و الدراسات السابقة و في مقدمتها منهج مارسيل لوغلي في كتابه " ساتورن الإفريقي .

1 - مفهوم المقاومة الدينية:

لعل من أهم المفاهيم الأكثر تداولاً عند الدارسين هو ذلك الذي صاغه م . بن عبو فيقول " نعتبر كشكل من المقاومة للرومنة كل ما هو في الديانة أو الديانات الممارسة فعلاً في مجموع مقاطعات إفريقيا الرومانية ،ينفصل ببعض خطوطه عن الديانة الرومانية الرسمية، و يرتبط بشكل مباشر أو غير مباشر بملاحم معروفة للديانة الإفريقية التقليدية " و هو تعريف مفتوح ،مجاله واسع، لكن للتمييز تجب العودة إلى الديانة الليبية، و في هذا المجال غالباً ما يشار إلى (الثبات البربري) لكن هذه الخاصية ليست لصيقة بالبربر فقط ،فالعقائد و الأساطير و الطقوس عادة ما تتميز بثبات واضح. رغم التجاور الطويل بين المغاربة و الرومان بقي التمايز و الخصوصية بين الديانتين على الأقل في جزء منهما، كما يمكن أن عناصر من ديانة الرومان انتقلت إلى السكان المحليين أو العكس، و غالباً ما يرجع ذلك إلى التشابهات الحقيقية أو المحتملة بينهما، و ذلك بإعطاء قيمة و معنى لم يكن موجوداً فيهما بالأصل لتصل إلى شكل من التوفيقية الدينية (Benabou, .Syncretisme religieux 1976: 261 - 262)

ب - أفرقة الآلهة الرومانية:

يشكل العمق الليبي مع المساهمة البونية القاعدة المحلية للديانة المغاربية و التي يسميها ج. توتان J. Toutain " بقايا survivances "، و مع التفاعل بين الرومان و المغاربة تأتي أفرقة الآلهة الرومانية l'Africanisation des divinités Romaines كشكل من الصمود أو المقاومة في المجال الديني، و تظهر هذه الأفرقة لبعض المعبودات الرومانية بالوقوف على طبيعة إله معين و الخطوط العريضة التي تميّزها في إفريقيا عن مثيلها الروماني، و إعطاء المغاربة القدامى بعض المعبودات الرومانية دوراً و معنى جديداً يتماشى مع أصالة و خصوصية ديانتهم، أي " روحاً إفريقية " و ما

يرتبط بذلك من أشكال العبادة أو الكهنة وصولاً إلى العمارة الدينية، كما يتبين من دراسة العبادات المختلفة أن عبادات إفريقية صميمة في المغرب القديم أخذت الطابع الروماني بدرجات متفاوتة، فكان من الآلهة الرومانية التي يبدو أنها عرفت تحولات في إفريقيا جوبيتر، ساتورن، ماركيز وسيلفيان، مارس وباخوس، وغيرها (Benabou, 1976: 331 - 377).

خاتمة:

لا تعدو أن تكون هذه المساهمة إلا التفاتة عامة لتسليط الضوء على جانب هام جداً من تاريخ الجزائر القديم، المتمثل في الجانب الثقافي بمشمولاته العديدة من لغة وكتابة ودين وفن وعادات وتراث مادي ومعنوي، وكما يتبين مما سبق فإن روما خاصة في العهد الإمبراطوري حاولت بأدوات عديدة وإجراءات كثيرة ومعقدة أن تفرض نظام حياتها وفلسفتها على الشعوب التي أخضعها لسلطانها، ورغم نجاحها في جعل قلة من السكان المحليين يتبنون ثقافتها من خلال المواطنة واللغة والعبادات إلا إن نظام الحكم الروماني أدى إلى تمسك المحليين بلغتهم شفوية ومكتوبة، وتمسكوا بأسمائهم المتوارثة في الأرياف والمناطق الفقيرة التي أجبروا على الانزواء فيها، وروح ديانتهم بل تحولوا إلى إعطاء طابع إفريقي محلي في تمثلهم لبعض المعبودات التي جاءت مع الرومان، كما لا يخفى أن كتابة تاريخ الماضي غالباً ما يتأثر بالظروف الموضوعية للمرحلة التاريخية التي يكتب فيها ويمثل ما سقناه عن الرومنة ومقاومتها عينة معبرة عن ذلك.

المراجع والإحالات:

- جوليان شارل أندري ، (1983) ، تاريخ إفريقيا الشمالية، ج . 1، تر. محمد مزالي و البشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، ط 4، تونس .
- شارن شافية و آخري ، (2007) ، الاحتلال الاستيطاني و سياسة الرومنة، منشورات المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954 ، الجزائر .
- شنيقي محمد البشير، (1982) ، سياسة الرومنة في بلاد المغرب من سقوط الدولة القرطاجية إلى سقوط موريطنيا نهائيا (146 ق. م / 40 م.) ، الجزائر .
- شنيقي محمد البشير ، (2003) ، أضواء على تاريخ الجزائر القديم (بحوث و دراسات)، دار الحكمة، الجزائر .
- عقون محمد العربي، (2008) ، الاقتصاد و المجتمع في الشمال الإفريقي القديم، دار الهدى، عين مليلة .
- ALBA Richard. (2000), « Ethnicity » , dans :Encyclopedia of Sociology, vol. 2 Sous la dir. Edgar F. Borgatta et Rhonda J.V. Montgomery, New York Macmillan Reference , 2 éd., PP . 842 - 854.
- Benabou Marcel (1976), La résistance Africaine à la romanisation, éd. François Maspero, paris.
- Benabou Marcel (1978), Les Romains ont — ils conquis l'Afrique ? Annales. Economies. Sociétés , Civilisations , PP. 83 — 88.
- Broughton Thomas.R.S., (1929), The Romanization of Africa Proconsularis, Westport : Greenwood Press, 1972 (Ire édit. John Hopkins Press, 233p.
- Camileri (C.), (1989), sous direction ,Chocs de cultures :Concepts et enjeux pratiques de l'interculturel, éd. L'harmattan, Paris, PP. 363 - 397.
- Dondin — payre Monique ,(1981), recherches sur un aspect de la romanisation de l'Afrique du nord : l'expansion de la citoyenneté romaine jusqu'à Hadrien, in : Antiquités africaines, 17 , pp. 93-132 .
- Gordon Milton,(1964), Assimilation.in :American life : the role of race, religion, and national origins, New York: oxford university press, 276 p.
- Hall Stuart , (2003) « Creolite and the Process of Creolization. », Creoli zand! Creolization. Dokumenta 11 Platform 3, Sous La Dir Okwui Enwezor. OstfildernPRuit :Hatje Cantz, 273p.

- Haverfield Francis, (1915), *The Romanisation of the Roman Britain*, Oxford Clarendon Press, 3e éd., 91p.
- Hingley Richard, (2005), *Globalizing Roman Culture : Unity, diversity and empire*, New York: Routledge, 208 p.
-
- Inglebert Hervé, Pierre Gros et Gilles Sauron, (2005), *Histoire de la civilisation romaine*, Paris : Presses universitaire de France, coll. « Nouvelle Clio », 512p, P. 428.
- Laroui abdellah, (1977), *les origines sociales et cultuelles du nationalisme marocain, 1830 - 1912, la découverte*, Paris (481P.)
- Le glay Marcel, (1966), *Saturne africain :Histoire*, Paris, éd. De Boccard, coll . Bibliothèque des écoles françaises d'Athènes et de Rome », 518p.
- Leroux patrick ,(2004), *La romanisation en question*, Annales. Histoire, Sciences Sociales 2004/ 2, 59^e année, pp. 287 – 311.
- (Leveau (Ph.), (1978), *La situation coloniale de l'Afrique romaine*, Annales. Economies. Sociétés , Civilisations, pp. 89 – 92 .
- Mattingly David J. (2011), *Imperialism Power and Identity, Experiencing the Roman Empire*, Princeton: Princeton University Press, 342p .
- Mesnage (J.), (1913) , *La romanisation de l'Afrique : Tunisie, Algerie, Maroc .* Paris,.
- MommsenTheodore, (1872) , *Histoire romaine*, édition présentée et établie par Claude Nicolet, Paris :Laffont, 1985 (1^{re} éd. 1863), 2 vol .
- Pflaum (G. H.), (1978) , *La romanisation de l'Afrique, L'Afrique Romaine, étude épigraphique*, Paris, , PP.375 – 392.
- Picard Gilbert Charles,(1959) *la civilisation de l'Afrique Romaine*, Plon , Paris .
- Sebai Meriem,(2005), *la romanisation en Afrique , retour sur un débat : la résistance africaine : une approche libératrice ?*, Afrique et histoire / 1, Vol. 3, PP. 39 – 56 .
- Thebert Yvan, (1978), *Romanisation et déromanisation de l'Afrique : histoire décolonisée ou histoire inversée*, Annales. Economies. Sociétés , Civilisations, PP. 64 – 82.
- Toutain (Jules), (1895), *Les cités romaines de la Tunisie : Essai sur la colonisation de l'Afrique du nord*, Ernest Thorin , Paris.